المبني للمفعول ودلالة التلقي الفيزيائي في لغة القرآن الكريم
- دراسة نظرية تطبيقية

بقلم الدكتور

عمرو أحمد عطيفي شحاتة

مدرس اللغويات ـ قسم اللغة العربية ـ كلية الآداب جامعة القاهرة ـ جمهورية مصر العربية

المجلد السادس والعشرون للعام ٢٠٢٢م

الجزء الثاني (إصدار ديسمبر)

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠٢٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

المبني للمفعول ودلالة التلقي الفيزيائي في لغة القرآن الكريم
- دراسة نظرية تطبيقية

عمرو أحمد عُطيفي شحاتة

اللغويات ـ قسم اللغة العربية ـ كلية الآداب جامعة القاهرة ـ جمهورية مصر العربية .

البريد الإلكتروني : amr_otafy@cu.edu.eg

الملخص

تأتي هذه الدراسة ضمن الدراسات المعنية باستنباط دلالات صيغة المبني للمفعول، مطبقة على أفصح كتاب عرفته العربية، وهو القرآن الكريم، من خلال الوقوف على نموذج واحد للمبني للمفعول وهو الفعل (قيل)، وتتبع بعض مواضع وروده في القرآن الكريم، واستنباط الغاية التي من أجلها يساق هذا الفعل بتلك الصيغة في بعض سياقات النسق القرآني، وهو ما أطلقت عليه الدراسة مفهوم (التلقي الفيزيائي) الذي يعني الإعلام بخفاء؛ أي استماع المخاطَب إلى المتكلم دون أن يراه، وهو مفهوم أوسع من المفاهيم المتداخلة معه كالوحي والإلهام والهاتف وغيرها؛ لأنها محددة ومخصصة ومقيدة.

تستوي الدراسة في مقدمة ومبحثين وخاتمة، عرض المبحث الأول لبعض المداخل النظرية التي لابد منها، وعلى رأسها التنظير لمفهوم التلقي الفيزيائي، واضطلع المبحث الثاني بتحليل عدد من الشواهد المساقة مع اللفظ (قيل) لدعم الدلالة المطروحة، وبالخاتمة نتائج البحث وتوصياته.

الكلمات المفتاحية : التلقي الفيزيائي، المبني للفاعل، المبني للمفعول، الوحي، الهاتف، الصَّدَى .

الترقيم الدولي الإلكتروني
ISSN 2636 - 316X

الترقيم الدولي
ISSN 2356-9050

Passive Voice and the Meaning of Physical Reception in the language of the Holy Qur'an A Theoretical Practical Study

Ohoud daughter of Eid Al-Khudidi
Department of Language and Grammar, Umm Al-Qura University, Makkah Al-Mukarramah, Kingdom of Saudi Arabia.
Email: amr_otafy@cu.edu.eg

Abstract

This study is concerned with the meaning of passive voice, with an application on the Holy Quran as the most eloquent book known to mankind. As an example, I follow the meaning of the verb قيـــل in some occurrences and try to find out about the significance of formulating it in the passive form in these contexts. For this purpose, I use the notion of physical reception, which means informing in a hidden way, i.e. the addressee listens to the speaker without seeing him. This notion, I argue, is broader than other restricted notions like afflatus and inspiration.

This study starts with an introduction followed by two sections and ends with a conclusion. The first section is devoted to some theoretical notions, particularly the notion of physical reception. In the second section, I provide an analysis of some examples of using the verb قيـــل to emphasize my theoretical assumptions. In the conclusion, I refer to the results of the study and its recommendations.

Keywords: Physical Reception – Active Participle – Passive Participle – afflatus – Echo .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

المبني للمفعول- أو المبني لما لم يسم فاعله- من المباحث اللغوية التي شغلت البيئات الثقافية المختلفة المعنية بخصائص التراكيب في لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر العربي، وذلك بهدف الوقوف على الأغراض التي من خلالها سيق الكلام على غير الأصل- من البناء للفاعل إلى البناء للمفعول- وهي أغراض ذات ملامح دلالية مهمة، على نحو ما نجد في حديث النحاة عن أغراض المبني للمجهول، أو في نصوص المفسرين الساعين إلى البحث والتفتيش والتنقيب والجري وراء سبب العدول أو المغايرة عن هذه الصيغة إلى تلك الصيغة الأخرى، وأثمر فكر المفسرين عن جهد دلالي لا يُنكر.

وقد أنجز عدد من الدراسات المعنية بصيغة المبني للمفعول تأصيلًا وتركيبًا ودلالة[١]، وهي دراسات لم تخرج في أغلبها- على اختلاف

---

(١) من ذلك على سبيل المثال:

- محمد محمود: صيغة البناء للمجهول في اللغة العربية، أصوله وتطوره، ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٨٣م.
- شرف الدين الراجحي: المبني للمجهول وتراكيبه ودلالته في القرآن الكريم، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩م.
- زاهر محمد: المبني للمجهول في القرآن الكريم "بحث في النحو والدلالة، مجلة جامعة الخليل للبحوث، المجلد (٣)، العدد (١)، ٢٠٠٧م.
- وداد حميد مهدي: الفعل المبني للمجهول في اللغة العربية (أهميته- مصطلحاته- أغراضه)، مجلة التربية والعلم، م(١٨)، ع(٢)، ٢٠١١م.
- أحمد خليل، ومحمد قاسم: مصطلح الفعل المبني للمجهول بين التراث النحوي ودراسات المحدثين، الجامعة المستنصرية، مجلة كلية التربية، ع (٦)، ٢٠١٦م.
- مازن أحمد محمد: الفعل المبني للمجهول في سورة البقرة في ضوء الدراسات النحوية والنفسية، ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة القدس، ٢٠١٨م.

مشاربها- عن الدلالات التي أقرها النحاة واللغويون أو ما هو قريب منها، ولعل من الدراسات المهمة في هذا السياق، دراسة محمد السيد عبد الرازق الموسومة بـ(الإعجاز البلاغي للفعل المبني للمجهول)[١]، فقد كاد يقف على المفهوم الذي تطرحه الدراسة، وذلك في تناوله لدلالة الفعل (نودي) الذي تكرر في قوله تعالى: ﴿فَلَمّا أَتاها نودِيَ يا موسى(١١) إِنّي أَنا رَبُّكَ فَاخلَع نَعلَيكَ إِنَّكَ بِالوادِ المُقَدَّسِ طُوًى(١٢)﴾ [طه]، وقوله جلَّ ذكره:﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٨]، وقوله جل وعلا: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص:٣٠]، إذ "يجسد الفعل الذي لم يسم فاعله أجزاء المشهد الذي نرى فيه موسى يفاجأ بالنداء الذي يأتيه من حيث لا يدري ولا يحتسب فنراه وقد اعترته الدهشة وهول المفاجأة وأخذ يتلفت هنا وهناك ليقف على حقيقة الصوت"[٢].

وتأتي هذه الدراسة ضمن الدراسات المعنية باستنباط دلالات صيغة المبني للمفعول، مطبقة على أفصح كتاب عرفته العربية، وهو القرآن الكريم، من خلال الوقوف على نموذج واحد للمبني للمفعول وهو الفعل (قيل)، وتتبع بعض مواضع وروده في القرآن الكريم، واستنباط الغاية التي من أجلها يساق هذا الفعل بهذه الصيغة. وقد أنجزت دراسة من قبل عن صيغة فعل الأمر (قلْ) في القرآن الكريم[٣].

---

(١) محمد السيد عبد الرازق: الإعجاز البلاغي للفعل المبني للمجهول، بحوث المؤتمر الدولي الثالث (العلوم الإسلامية وقضايا الإعجاز في القرآن والسنة بين التراث والمعاصرة، في الفترة من ٤- ٦ مارس ٢٠٠٧م، كلية دار العلوم، جامعة المنيا، المجلد الأول.

(٢) الإعجاز البلاغي للفعل المبني للمجهول، ص ٣٦٢.

(٣) جاسم الفارس: آيات "قل" في القرآن الكريم: المعنى والدلالة، نشر إلكترونيًّا عن دار ناشري للنشر الإلكتروني، ٢٠٢١.

والحق أن دراستنا هذه مقصورة على تبيين دلالة واحدة- نحسبها قشيبة- ومحاولة تأكيدها في الشواهد التي تقوم الدراسة بتحليلها، ألا وهي دلالة (التلقي الفيزيائي) التي تعني الإعلام بخفاء؛ أي استماع المخاطَب إلى المتكلم دون أن يراه، وهو مفهوم أوسع من المفاهيم المتداخلة معه كالوحي والإلهام والهاتف وغيرها؛ لأنها محددة ومخصصة ومقيدة.

وقد اقتضت طبيعة الدراسة أن تقسم إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة، عرض المبحث الأول لبعض المداخل النظرية التي لابد منها، وعلى رأسها التنظير لمفهوم التلقي الفيزيائي، واضطلع المبحث الثاني بتحليل عدد من الشواهد المساقة مع اللفظ (قيل) لدعم الدلالة المطروحة، وبالخاتمة نتائج البحث وتوصياته.

المبحث الأول- مداخل نظرية تمهيدية:

المطلب الأول- المبني للمفعول في عرف النحاة والدراسات اللغوية الحديثة:

أظهرت الدراسات الحديثة المنجزَ التراثي فيما يتعلق بصيغة المبني للمفعول، من حيث المصطلحات التي صكها النحاة، ومن حيث بنيتُه وأغراضه، ومن حيث أقسام الفعل من حيث البناء للمفعول، ومن حيث الأصالة والفرعية، ومن حيث ما ينوب عن الفاعل، وكل هذا فصلته دراسات سابقة[١] بما يغني عن إعادة التكرار؛ إذ ليس من هدف الدراسة الإعادة بما يوهم جديدًا، لا سيما أن المفهوم قد استقر وأصبح جليًّا، ولأن هدف الدراسة تطبيقي في المقام الأول؛ فلم يكن الجانب التنظيري فيها إلا على قدر الحاجة إليه.

وقد أظهرت بعض الدراسات مدى شيوع صيغة المبني للمفعول في اللغات السامية، إذ كانت العربية على رأس أخواتها الساميات الثرية بتلك الأفعال، ومثلها العبرية القديمة، بخلاف غيرهما من اللغات الأخرى التي تندر فيها أو تخلو منها هذه الأفعال[٢]. وكذلك أولت دراسات أخرى اهتمامًا بموقف علم اللغة الحديث من قضية البناء للمفعول، وطرائق تركيبه في كثير من اللغات[٣]؛ إذ الهندية مثلًا تغير الفعل دون تغيير في حركة الاسم[٤].

---

(١) ينظر في بسط ذلك:
- المبني للمجهول وتراكيبه ودلالته في القرآن الكريم، ص٩: ٢٥.
- الفعل المبني للمجهول في اللغة العربية (أهميته-مصطلحاته-أغراضه)، ص١٧٨: ص١٩٨.
- مصطلح الفعل المبني للمجهول بين التراث النحوي ودراسات المحدثين، ص ٦٣: ص ٧٠.
(٢) ينظر: الفعل المبني للمجهول في اللغة العربية (أهميته- مصطلحاته- أغراضه)، ص١٧٨.
(٣) ينظر: المبني للمجهول وتراكيبه ودلالته في القرآن الكريم، ص ٣٦: ص ٤٠.
(٤) المبني للمجهول وتراكيبه ودلالته في القرآن الكريم، ص ٣٨، والنص عن بالمر في كتابه علم الدلالة، ترجمة مجيد الماشطة، الجامعة المستنصرية، ١٩٨٥م، ص ١٥٨.

المطلب الثاني- المبني للمفعول في الدرس النصي:

عجت المكتبة العربية منذ سبيعينيات القرن العشرين بمجموعة من الدراسات المنجزة حول النصوص الشعرية والنثرية- تراثها ومعاصرها- وكذا النصوص الدينية، وذلك فيما يتعلق ببناء الجملة، الذي شمل في طياته الحديث عن الفعل المبني للمفعول، وباستقراء بعض هذه الدراسات تبين أنَّ قطاعًا منها كان منصبًا على جملة المبني للمفعول من حيث التركيب، وأظهر هذا القطاع من الدراسات أن المبني للمفعول أكثر ما يكون مع الجملة الفعلية المتعدية إلى مفعول واحد، وقلما يظهر مع الجملة ذات المفعولين أو ذات المفاعيل الثلاثة(١)، كما أجلى ندرة التقديم والتأخير في جملة المبني للمفعول(٢)، واهتم قطاع آخر بالفعل المبني للمفعول من حيث المضي والمضارعة، وأظهر هذا القطاع من الدراسات أن المبني للمفعول يغلب مع الفعل الماضي أكثر من المضارع(٣)، ونهض قطاع ثالث من الدراسات

---

(١) ينظر:
- عبد الجليل حسين عبيد: بناء الجملة العربية في ديوان النابغة الذبياني، ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٧م، ص ٣٧.
- حسن محمود: بناء الجملة في شعر زهير بن أبي سلمى، ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ٥٧: ص ٦٠.
- جمال السيد أبو حسين: الجملة الخبرية في عبقرية عمر للعقاد، دراسة وصفية تحليلية، دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بنها، ٢٠٠٦م، ص ٢١٢: ص ٢١٦.

(٢) ينظر: الجملة الخبرية في عبقرية عمر للعقاد، ص ٢٢٧.

(٣) ينظر:
- طالب محمد: بناء الجملة في ديوان طرفة بن العبد، ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٨م، ص ١٠٢.
- ناصر باتع: بناء الجملة الخبرية في ديوان البحتري، دراسة وصفية توليدية تحويلية، دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بنها، ٢٠٠٦م، ص ٣٤٨.

بتفصيل نوع نائب الفاعل من حيث التعريف والتنكير، ومن حيث أنواع المعارف، ومن حيث كونه شبه جملة، وقد أظهر هذا القطاع من الدراسات أن نائب الفاعل أكثر ما يكون معرفة، يليه شبه الجملة، ثم نائب الفاعل النكرة، كما أظهر أن أكثر المعارف- شيوعًا- هي الواقعة نائب فاعل، المعرف بأل، ثم المعرف بالإضافة، يليهما الضمير المتصل والعلم، ويندر مع الأسماء الموصولة والإشارة(١). وبالنسبة إلى النص القرآني فقد أفردنا له مطلبًا خاصًّا بوصفه مادة الدراسة الأساسية.

ورغم هذا التفاوت في طريقة عرض صيغة المبني للمفعول في الدراسات النصية، فإنها شكلت لنا رؤية عامة عن طبيعة هذا التركيب من نواح متعددة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنها أظهرت شيوع هذا التركيب في النص العربي(٢).

(١) ينظر: الجملة الخبرية في عبقرية عمر للعقاد، ص ٢١٢.

(٢) ينظر: المراجع السابق ذكرها المتعلقة ببناء الجملة.

المطلب الثالث - المبني للمفعول في القرآن الكريم:

في الدراسة الفذة التي قدمها عبد الخالق عضيمة عن أسلوب القرآن الكريم(١)، بين أن الأفعال المبنية للمفعول كثيرة الدوران في لغة القرآن الكريم؛ إذ تتجاوز الخمسمائة موضع بكثير، فضلًا عن ترددها في القراءات المختلفة، وأكثر وقوع النائب عن الفاعل مع المفعول به، وقل مجيء المفعول الأول نائبًا عن الفاعل، وأقل منه الجار والمجرور، ولم يكن في القرآن موضع "تعين فيه الظرف للقيام مقام الفاعل وإنما ما جاء في القرآن كان محتملًا لا متعينًا"(٢).

المطلب الرابع- مفهوم التلقي الفيزيائي.

التلقي الفيزيائي مركبٌ وصفيٌّ، أخذ شطره الأول من مفهوم التلقي عند الصوفية(٣)، واستعير شطره الثاني من مفهوم العامل الفيزيائي للتواصل المعروف في الدراسات اللغوية الحديثة(٤)، ويقُصد بالتلقي الفيزيائي الرسائل [وهي عبارة عن المعاني أو المقاصد أو الأوامر أو النواهي... إلخ] التي تتلقاها الأذن دون رؤية صاحب الرسالة، سواء عُرفت جهة الرسالة أم لم تُعْرَف، وسواء كانت الرسالة صادقةً أم باطلة، وسواء أكانت جهة الرسالة

---

(١) يراجع: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، القسم الثالث، ج١، ص ٥٥٧: ص ٦٩٢.

(٢) دراسات لأسلوب القرآن الكريم، القسم الثالث،ج١، ص ٥٦٣، وراجع ص٥٥٧، ص٥٥٨.

(٣) يعرف ابن عربي التلقي: "أخذك ما يرد من الحقِّ عليك"، ويقول الشارح: "هو قبول كل ما يرد على المريد من الحق تعالى من أوامر أو نواهي [هكذا، ولها وجه في العربية] عن طريق خاطر أو رؤيا، أو على لسان الغيب..."، (ينظر: سعيد هارون: شرح معجم اصطلاحات الصوفية لابن عربي، القاهرة، مكتبة الآداب، ط١، ٢٠٠٧م، ص ٥٧).

(٤) ينظر في الوجود الفيزيائي لتحقق وصول الرسالة: سعد مصلوح: دراسة السمع والكلام- صوتيات اللغة من الإنتاج إلى الإدراك، القاهرة، عالم الكتب، ٢٠٠٥م، ص ٧.

أو المرسل غيبيًّا أم غير غيبي، واقعيًّا أم خياليًّا، وسواء أكان انتقال التلقي عبر الهواء، وهو التلقي الخارجي، أم ينتقل دون هواء (التلقي الداخلي) كالإلهام والخاطر وحديث النفس مثلًا[١].

وبناء على هذا التعريف الذي صغناه لما اصطلحنا عليه "التلقي الفيزيائي"، فإنه مفهومٌ أوسع من المفاهيم المتداخلة معه، المتعاورة في البيئات العلمية المختلفة[الدينية، والصوفية، والأدبية، والنفسية]، نحو مفاهيم الوحي والإلهام والجرس والرؤيا والمبشرات في البيئة الدينية، والإلهام الشعري وشيطان الشعر في البيئة الأدبية، والتلقي والمحادثة والمطالعة في البيئة الصوفية[٢]، والوسوسة والهلاس السمعي والوهم في البيئة النفسية[٣]، والهاتف المشهور عند العرب في حكاياتهم وأسمارهم.

---

(١) أثبتت الدراسات الصوتية أن "الهواء ليس الوسط المادي الوحيد المؤهل لنقل الصوت، وإن كان هو أكثر الأوساط شيوعًا في حياتنا اليومية، فالصوت يمكنه أن ينتقل في أي وسط مادي تتمتع جزئياته بخاصية المرونة.."، (دراسة السمع والكلام- صوتيات اللغة من الإنتاج إلى الإدراك، ص ١٨)، وهذا ما جعلنا نوسع الدائرة فإن الصوت قد لا يحتاج وسطًا ماديًّا أيضًا، لا سيما ما يتعلق في الدنيا من رسالات كالإلهام أو حديث النفس، إذ قد يسمع الإنسان صوتًا (إلهام) دون أن يسمعه غيره، أو يسمع صوته محدثًا نفسه، وفي هذا وذاك ليس هناك وسط مادي، فضلًا عما يتعلق بأمر الآخرة الغيبي الذي لا يقارن فيه وسائل نقل الصوت بوسائل نقل الصوت في الدنيا.

(٢) من المصطلحات الصوفية التي تندرج تحت هذا المفهوم: الهاجس- القبض والبسط- الصحو والسكر- الخاطر- الوارد- الزاجر- المحادثة- المسامرة- المطالعة- الواقعة- الحرف- السكينة- التلقي- الجرس- الإشارة- العِيد- اللسن- الفهوانية. ينظر:

- شرح معجم مصطلحات ابن عربي، ص ٨، ص ١٩، ص ٢٧، ص ٣١، ص ٣٣، ص ٤٠، ص ٤٣، ص ٤٩، ص ٥١، ص ٥٥، ص ٥٧، ص ٥٩، ص ٦٥، ص ٧٤، ص ٧٩.
- القشيري:الرسالة القشيرية في علم التصوف:تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، القاهرة،المكتبة التوفيقية، ط٢٠١٥،٢م،ج١، ص١٥٥، ص١٧١، ص١٩١، ص١٩٣.

(٣) من المصطلحات النفسية التي تندرج تحت هذا المفهوم: الهلاس السمعي.

وتستنبط هذه الدلالة بوضوح وشيوع من خلال الأخبار التي وصلتنا عن ثقافة العرب ومعتقداتهم، وأشيع ما يُعبر عن تلك الدلالة في ثقافاتهم حديثهم عن (الهاتف)، يقول الزبيدي في مستدركه على القاموس: "سمعت هاتفًا: إذا كنت تسمع الصوت ولا تبصر أحدًا"(١)، وهذا المعنى واضح للتعبير عن تلك الدلالة، ولذلك كان أكثر شيوعًا في ثقافاتهم.

ويلاحظ أن مصدر الهاتف كان قد يكون خيرًا (هاتفًا عُلويًّا)(٢) وقد يكون شرًّا (هاتفًا من الجن أو الشيطان)(٣)، وقد يكون مجهولًا(٤)، كما أن

---

(١) الزَّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٢٤، تحقيق مصطفى حجازي، سلسلة التراث العربي، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ص ٤٨٥.

(٢) على نحو ما روي عن مجنون ليلى أنه لما قال:

قضاها لغيري وابتلاني بحبها ... فهلَّا بشيء غير ليلى ابتلانيا

ـ "نُودي في الليل، أنت المتسخط لقضاء الله والمعترض في أحكامه"، (أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠م، ج٢، ص ٦٨). ومنه ما روي عن مسلمة بن عبد الملك ساعة وفاة عمر بن عبد العزيز: "فإذا هاتف يهتف في البيت لا نراه: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾"، (الأغاني، ج٩، ص ٢٦٨).

(٣) أخبر القرآن الكريم بوجود الجن خيره وشره، وقد كلِّف باتباع الرسالة المحمدية؛ فقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الثقلين. والجن مَثَلُهُ مَثَلُ الإنسان في أنه مكلف وفي أنه يتزاوج وفي طبيعته وتغير مزاجه، (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)، غير أنهما مختلفان في مادة الخلق وأضدادية وجودهما؛ فالإنسان مسبوق ظاهر مرئي مخلوق من طين، والجن سابقٌ مستتر عنه مخلوق من نار. ورغم ما جاء به القرآن من تأكيد لوجود خلق مستتر اسمه الجن، فقد أنكر البعض وجوده قديمًا وحديثًا، أما الثقافة العربية فقد أولت الجن اهتمامًا كبيرًا وشغلت في مخيلته حيزًا ليس بالقليل، وقد عرف العرب الجن وسموه بأسماء عدة تبعًا لحالته. وبلغ الجن- لما لازمه من أفعال خارقة وخارجة عن العادة- منزلًا رفيعًا لدى شعرائهم فيما عرف بشيطان الشاعر، ينظر في تفصيل ذلك: (عمرو عُطيفي: الثقافة الشعبية في المعاجم العربية- العين ومعجم اللغة العربية المعاصرة نموذجًا، مجلة الموروث، معهد الشارقة للتراث، العدد (٦)، يونيو، ٢٠١٧م، ص ٥٤: ص ٥٦). ولم يقتصر هاتف الجن على الشعراء فحسب بل ظهر في كل مناحي حياتهم الاجتماعية، فنلقاه مثلًا مع المغنيين نحو ما روي عن إبراهيم الموصلي أنه سمع هاتفًا أخبره أنه إبليس، أو ابن جامع الذي ألقي عليه رجلًا من الجن صوتًا من الغناء، (الأغاني، ج٥، ص ١٥١، ج٦، ص ٢٩٤).

(٤) كهاتف بثينة الذي وقع لها ساعة مات جميل، وهاتف المهلهل بن ربيعة الذي وقع له لما أمر زوجته أن تقتل رضيعتها ساعة أخبر بأنها أنثى، (الأغاني، ج٨، ص ٢٠٤- ج١١، ص ٥٢).

مآل سماع الهاتف قد يكون عاديًّا وقد يؤدي إلى صاعقة أو رجفة(١)، وقد يصاب صاحبه بالمسِّ(٢)، أو قد يرمُى صاحبه بالجنون(٣)، وقد يغير حادثًا(٤)، كما قد يوصف الهاتف بالشيء الوهمي(٥)، إذ كان سماع الهاتف وقع لواحد دون غيره من المحيطين به ساعة وقوعه.

ومن أشكال التلقي الفيزيائي ما يعرف بالصدى وهو رجع الصوت، ومنه السماع من محيط المكان دون رؤية القائل لعارض ما، كأن يكون بين المتكلم والمتلقي حاجز يحول دون رؤية المتكلم، وقد يكون الحاجز ماديًّا كالسور وقد يكون معنويًّا كالظلمة والعمى.

---

(١) نحو ما روي عن رجل من غفار من غزاة بدر أنه وابن عمه سمعا صوتًا صادرًا من سحابة- دنت منهما- يقول: أقدم حيزوم. قال[أي الرجل]: فأما ابن عمي فانكشف قناع قلبه فمات مكانه، وأما أنا فكدت أهلك فتماسكت"، الأغاني، ج٤، ص ١٩٨.

(٢) نحو ما روي عن خبر المجنون السابق لما نُودي في الليل؛ إذ "اختُلس عقله فتوحش منذ تلك الليلة وذهب مع الوحش على وجهه"، وقيل إن سبب جنونه مجموعة من الأبيات "سمع في الليل هاتفًا يهتف [بها] فكانت سبب جنونه"، (الأغاني، ج٢، ص ٦٨، ص ٨).

(٣) نحو هاتف بثينة السابق، فقد أخبرها صواحبها بأن ظائفًا من الشيطان مسها، (الأغاني، ج٨، ص ٢٠٤).

(٤) نحو رد فعل المهلهل في هاتفه السابق ذكره، فقد رجع إلى رشده في عدم فتل ابنته ليلى، وكان منها عمرو بن كلثوم شارع تغلب.

(٥) يراجع الأغاني، ج ٥، ص ١٥٢.

المطلب الخامس- دلالة فعل القول في القرآن الكريم:

ذكر الراغب أن القول يستعمل على أوجه، منها:

- الشيء المتصور في النفس قبل التلفظ به، فيقال في نفسي قول لم أظهره. ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨].

- الإلهام(١)، ومنها قوله تعالى: ﴿قُلنا يا ذَا القَرنَينِ﴾ [الكهف: ٨٦].

وورد فعل القول ومشتقاته في القرآن الكريم أكثر من ألف وسبعمائة مرة وفقًا لإحصائيات المشتقات المختلفة التي أعدها معجم ألفاظ القرآن الكريم(٢)، ومن الدلالات التي خرج عليها فعل القول المبني للفاعل في الذكر الحكيم دلالتا الوحي والإلهام(٣)، وهي معاني مهمة جدًّا في توجيه دلالة المبني للمفعول الذي اختص باثنين وخمسين موضعًا، أشيعها كان مع صيغة الماضي (قيل) إذ تكررت تسعًا وأربعين مرة(٤)، ولم تتردد صيغة المضارع

---

(١) ينظر:

- الفيروزابادي: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ، ج٤، ص ٣٠٣، ص ٣٠٤.

- تاج العروس من جواهر القاموس،ج ٣٠، ص ٢٩٢.

(٢) يراجع: معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١٩٩٠، ج٢، ص ٩١٦: ص ٩٣٠.

(٣) يراجع: معجم ألفاظ القرآن الكريم، ج٢، ص ٩١٨ (قال: ب- أوحى)، ص ٩١٩ (قال: ج- ألهم)، ص ٩٢١ (قلنا: ب- أوحينا، ج- ألهمنا)، ص ٩٢٢ (أقل: ب- أوحِ)، ص ٩٢٤ (يقول: ب- يوحي).

(٤) يراجع: معجم ألفاظ القرآن الكريم، ج٢، ص ٩٢٢.

أكثر من ثلاث مرات: ثنتين بمعنى توجيه الكلام أو القول، وواحدة بمعنى يسمى ويدعي[١].

أما صيغة الماضي الأشهر فقد حصرها المعجم في دلالة واحدة عامة "وجَّه الكلام أو الأمر"[٢]، وهي دلالة تحتاج إلى تفصيل وتحديد معنى التوجيه أو الأمر، من خلال البحث عن جهات الخطاب: صاحب التوجيه أو الأمر، والموجه إليه الكلام أو الأمر، والكيفية التي كان عليها التوجيه أو الأمر، وهذا ما تحاول الدراسة أن تجيب عنه وفقًا للمعطيات المفرداتية التي دلتنا عليها المعاجم، من جانب، ووفقًا لمعطيات السياق اللغوي والمقامي من جانب آخر.

(١) يراجع: معجم ألفاظ القرآن الكريم، ج٢، ص ٩٢٥.

(٢) يراجع: معجم ألفاظ القرآن الكريم، ج٢، ص ٩٢٢.

المبحث الثاني

نماذج تطبيقية للفعل (قيل) لدلالة التلقي الفيزيائي في القرآن الكريم.

أولًا- التلقي الفيزيائي مع مشهد اليوم الآخر (كلام الله تعالى):

١- كلام الله تعالى لجهنم:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، وقرئ: ﴿يَوْمَ يُقَالُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ بصيغة المبني للمفعول.

توقف المفسرون عند كلام الله تعالى لجهنم، من حيث توجيه الكلام لها مباشرة من قبل الله تعالى أو بواسطة (خزنتها)، ومن حيث كلام جهنم على الحقيقة أو التمثيل والتخييل أو الواسطة عن طريق خزنتها، ومن حيث دلالة الامتلاء، ومن حيث دلالة الزيادة، ومن حيث دلالة الاستفهام[١].

---

(١) يراجع:
- الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق عبد الله التركي، القاهرة، دار هجر، ط١، ٢٠٠١م، ج٢١، ص ٤٤٣: ص ٤٤٩.
- الزمخشري: الكشاف، تحقيق عادل أحمد عبدالموجود، علي معوض، الرياض، مكتبة العبيكان، ط١، ١٩٩٨م، ج٥، ص ٦٠١، ص ٦٠٢.
- ابن عطية: المحرر الوجيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠١م، ج٥، ص ١٦٥.
- الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، بيروت، دار العلوم، ط١، ٢٠٠٦م، ج٩، ص ١٨٧، ص ١٨٨.
- ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، بيروت، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٩٨٤م، ج٨، ص ١٩، ص ٢٠.
- الرازي: تفسير الفخر الرازي، بيروت، دار الفكر، ط١، ١٤٠١ه- ١٩٨١م، ج٥، ص ١٩٢.
- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق عبد الله التركي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٦م، ج١٩، ص ٤٥٠: ٤٥٣. =

ويظهر لنا أن تعدد القراءة بين البناء للفاعل والبناء للمفعول قد يحل هذا الخلاف، فمن حيث مباشرة الكلام أو غير المباشرة، فنرجح أنه من كلام الله تعالى مباشرة، لوجوه[١]: الأول- قراءة الجماعة (نقول)، وقراءة الأعرج وغيره (يقول) وقراءة الحسن (أقولُ)، بصيغة البناء للفاعل. الوجه الثاني- أن الكلام لو كان بواسطة لصُرِّح به، لا سيما أن القرآن ذكر مالكًا وخزنة جهنم في مواضع أخرى ولم يُكَنِّ عنهم. الوجه الثالث- قراءة ابن مسعود وغيره بصيغة البناء للمفعول (يقال) التي تدعم أن الكلام مباشر من قبل الله تعالى لجهنم دون أن ترى جهنم رب العباد، فقد عضدت هذه القراءة قراءات البناء للفاعل، ولولا ذلك فيما يرى الباحث لخرج المعنى بأكثر من وجه، فدلالة البناء للفاعل وحدها لا تكفي، لإمكانية خروج المعنى على غير الحقيقة (كما سنبين في فقرات تالية)، ودلالة البناء للمفعول وحدها لا تكفي لإمكانية أن يكون الغرض منها إثبات الواسطة في الكلام، ولما تآلفت

= - البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، إعداد وتقديم محمد المرعشلي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ج٥، ص ١٤٣.

- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، تحقيق مصطفى السيد وآخرين، الجيزة، مكتبة قرطبة، ط١، ٢٠٠٠م، ج١٣، ص ١٩٣: ١٩٧.

- السيوطي: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تحقيق عبد الله التركي، المهندسين، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، ط١، ٢٠٠٣م، ج ١٣، ص ٦٣٩: ٦٤٢.

- المقدسي: فتح الرحمن في تفسير القرآن، تحقيق نور الدين طالب، قطر، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ط١، ٢٠٠٩م، ج٦، ص ٣٨٩.

- أبو السعود: تفسير أبي السعود، أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، الرياض، مكتبة الرياض الحديثة، ١٩٧١م، ج٥، ص ١٩٢.

- الشوكاني: فتح القدير، الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، اعتنى به وراجع أصوله يوسف الغوش، بيروت، دار المعرفة، ط٤، ٢٠٠٧م، ص ١٤٠٠.

- ابن عاشور: التحرير والتنوير، تونس، الدار التنوسية للنشر، ١٩٨٤م، ج ٢٦، ص ٣١٧، ص ٣١٨.

(١) وجنح إلى ذلك من قبل ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ٢٦، ص ٣١٧.

القراءتان واجتمعتا دلتا على أن الكلام مباشر من قبل الله تعالى وتلقته جهنم سماعًا دون مشاهدة المتكلم. وما دامت تلقت الكلام مباشرة من الله تعالى فقد أدت حق الله في سرعة الإجابة على الحقيقة لا التمثيل أو التخييل أو الواسطة، قال ابن عطية: "والقول إنها القائلة أظهر"(١)، وقال الشوكاني: "ولا يمنع من ذلك عقل ولا شرع"(٢).

ومن حيث دلالة الامتلاء والزيادة والاستفهام فقد ذكر العلماء أن المعنى على وجوه منها: أن جهنم طلبت الزيادة من الكفار، أو طلبت الزيادة في سعتها لزيادة عدد الداخلين، أو أن المعنى على الكفاية، فخرج الاستفهام عن حقيقته، فقد استكثرت عدد الداخلين. وحاول بعض المفسرين التوفيق بين هذه الأقوال بأن طلبها الزيادة من الكفار كان قبل دخول جميع أهل النار فيها؛ إذ يطرح فيها الكفار أو العصاة فوجًا بعد فوج. وهذا التوفيق الذي يذهب إلى ترجيح كل المعاني باختلاف المقام والحال تعضده القراءتان للفعل: المبني للفاعل والمبني للمفعول؛ إذ دلتا على أن الخطاب لجهنم لم يكن مرة واحدة، بل تكرر أكثر من مرة، إذ دل البناء للمفعول على بداية الحوار بين الله تعالى وجهنم، فقد تلقت كلامًا وأصواتًا فاستجابت تلقائيًّا لهيبة المقام لجلال الله تعالى وطلبت الزيادة العددية، وهذا يناسب قراءة البناء للمفعول (يقال). ولما ألفت جهنم سماع الصوت الملقى من الله تعالى ناسب ذلك قراءة البناء للفاعل التي سيقت بوجوه (نقول- تقول- أقول) لتدل على تكرار السؤال وتكرار الإجابة وكأنها ترى الله عز وجل إلى أن وضع الرحمن قدمه على نحو ما أكدت الأحاديث الخاصة بامتلائها وتكرار سؤالها(٣).

---

(١) المحرر الوجيز، ج٥، ص ١٦٥.

(٢) فتح القدير، ص ١٤٠٠.

(٣) يراجع: تفاسير الطبري وابن عطية وابن الجوزي وابن كثير والقرطبي والسيوطي، الأجزاء والصفحات السابق ذكرها.

٢- كلام الله تعالى للعباد:

من القضايا العقدية التي ناقشها الأصوليون والمتكلمون وغيرهما بتوسع مسألة رؤية الله تعالى، وبصرف النظر عن الخلاف الدائر بينهم حول دلالة الرؤية، فإن الذي عليه جمهور أهل السنة وجوب "رؤية المؤمنين له في الآخرة شرعًا من غير تشبيه"(١)، وأنها مختصة بأهل الجنة ساعة استقرارهم في الجنة(٢)، أما غير ذلك فإن الله تعالى لن يُرى لمؤمن أو لكافر سواء في الدنيا، أم يوم القيامة ساعة الحساب إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا، ومن ثم نجد أن فعل القول أكثر ما يساق بصيغة البناء للمفعول مع مشاهد يوم القيامة كما تحدثت تلك الآيات عن مصير أهل النار:

- ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ(٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ(٩٢)﴾ [الشعراء].

---

(١) الفاكهاني: عقيدة في أصول الدين، تحقيق مكتب إحياء التراث الإسلامي بمشيخة الأزهر الشريف، هدية مجلة الأزهر، جمادى الآخرة ١٤٤١هـ- فبراير ٢٠٢٠م، ص٤٥. ويراجع: الباقلاني: الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، تحقيق محمد زاهد الكوثري، القاهرة، المكتبة الأزهرية للتراث، ط٢، ٢٠٠٠م، ص ٤٥، ص ٤٦).

(٢) يراجع في تفصيل ذلك على سبيل المثال:

- طارق محمد سليمان: رؤية الله تبارك وتعالى حسب المباحث العقدية الواردة في تفسير ابن العربي المالكي ت ٥٤٣هـ، مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعة بغداد، العدد (٤٤)، ج١، ٣٠ كانون الأول ٢٠١٥م.
- أحمد عبد القادر رفاعي: رؤية الله تعالى يوم القيامة بين الإمكان والاستحالة- دراسة للأدلة ولأقوال المذاهب في ضوء مكتشفات علم الفلك المعاصر، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات، دمنهور، ع (٣)، ج٢، ٢٠١٨م.

- ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ(٢٠)﴾ [السجدة].

- ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ(٢٤)... وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ(٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ(٧٢) وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ(٧٣)... وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٧٥)﴾. [الزمر]

- ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ(٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ(٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ(٧٣)﴾ [غافر].

- ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [الجاثية: ٣٤].

- ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

- ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

- ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَـذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ﴾ [الملك: ٢٧].

ومع مشهد الرجل المؤمن الذي قتله قومه على أرجح الآراء[١]: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٢٦]، فقد صرح قطاع من المفسرين أنَّ الخطاب من قبل الله تعالى لهذا الرجل الناصح لقومه (حبيب النجار)[٢]، وعلى هذا أتي بصيغة المبني للمفعول لتأكيد دلالة السماع من ربه اطمئنانًا وتكريمًا له جزاء ما لقي من قومه، وقد أكد المفسرون هذه الدلالة بقصد أو من دون قصد لما تعرضوا لعلة البناء للمفعول (قيل) مع حذف متعلق فعل القول وهو الجار والمجرور (له)، لأن المقصود بيان

(١) واختلف في طريقة القتل، وقيل لما هم القوم بقتله رفعه الله، (يراجع: المحرر الوجيز، ج٤، ص ٤٥١- مجمع البيان، ج٨، ص ٢٠٥- تفسير القرطبي، ج ١٧، ص ٣٤٠، ص ٤٣١- تفسير البيضاوي، ج٤، ص ٢٦٦- تفسير القرآن العظيم، ج١١، ص ٣٥٥- تفسير أبي السعود، ج٤، ص ٤٩٩، ص ٥٠٠- فتح القدير، ص ١٢٢١، ص ١٢٢٢- التحرير والتنوير، ج٢٢، ص ٣٧٠- تفسير المراغي، ج٢٢، ص ١٥٤).

(٢) يراجع: تفسير البيضاوي، ج ٨، ص ٣٧- التحرير والتنوير، ج٢٢، ص ٣٧٠، تفسير المراغي، ج ٢٢، ص ١٥٤، وقد اختلف في توقيت القول؛ إذ ذهب فريق من المفسرين إلى أنه كان ساعة استشهاده، وذهب فريق آخر إلى أنه كان قبل موته للبشارة والاطمئنان، وهذا واضح من قول الأئمة: ابن عطية: "عرض عليه مقعده منها، وتحقق أنه من ساكنيها برؤيته ما أقر عينه"، والقرطبي: "والظاهر من الآية أنه لما قتل قيل له: ادخل الجنة"، والمظهري: "قال الله تعالى لحبيب البخار[هكذا] رضي الله عنه لما استشهد إكرامًا وإذنًا في دخول الجنة كسائر الشهداء (ادخل الجنة)، وقيل قال الله تعالى له ذلك قبل موته، يعني ادخل [في الأصل: أدخل] قبرك الذي هو روضة من رياض الجنة"، والبقاعي: "(قيل) أي له بعد قتلهم إياه"، (ينظر: المحرر الوجيز، ج ٤، ص ٤٥١- تفسير القرطبي، ج ١٧، ص ٤٣٢- تفسير المظهري، ج ٨، ص ٣٧- البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، ١٩٨٠، ج١٦، ص ١١٤).

وتوضيح القول نفسه (ادخل الجنة) لا المقول له، ولأن القائل معلوم[١]، وإذا كان الغرض هو بيان توضيح القول الذي يقتضي طمأنة الرجل الصالح بمآله ليستبشر وتقر عينه، فمن باب أولى أن يكون سمعه مباشرة دون واسطة، لأن هذا آكد في النفس[٢].

وهذه الطريقة- أقصد التعبير بصيغة البناء للمفعول- تكاد تكون مطردة في القرآن الكريم، وكأنها إشارة إلى دلالة التلقي لدى المخاطبين من قبل الله عز وجل مباشرة لا عن طريق واسطة كما ذهب قطاع من المفسرين، لسبب يسير وهو أن الواسطة لو كانت مقصودة لصُرح بها كما صرح القرآن بذلك في أكثر من موضع، هذا من ناحية، كما أن المشهد يوم القيامة مختلف عن الحياة الدنيا، المشهد يوم القيامة فيه بشارة ووعيد، بشارة لأهل الإيمان على إيمانهم، ووعيد لأهل الزيغ والبدع على كفرهم وإلحادهم، فيكون الكلام من قبل الله تعالى دون واسطة- كما يرى الباحث- من باب أولى، لتلقى المؤمن رسالة ربه مطمئنًا مبشرًا، ويتلقى الكافر رسالة

---

(١) يراجع: الكشاف، ج ٥، ص ١٧٢- تفسير البيضاوي، ج ٤، ص ٢٦٦- تفسير المظهري، ج٨، ص ٣٧- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج ١٦، ص ١١٤- تفسير أبي السعود، ج ٤، ص ٥٠٠- التحرير والتنوير، ج٢٢، ص ٣٧٠.

(٢) وأما نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، من حيث إن المبَشر بالجنة هم الملائكة، فهذا يخرج مخرجًا آخر؛ إذ الخطاب هنا للموحدين المصدقين بالأنبياء والرسل والملتزمين على ذلك حتى وفاتهم، أما آية الرجل الصالح الذي قتله قومه فقد أطبق المفسرون على أنه من الشهداء، ولا يخفى ما للشهيد من منزلة ومكانة عند ربه، ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ(٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ(٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ(٦)﴾ [محمد].

ربه عبوسًا مكفهرًا من هول ما سمع وما يصير إليه، وهذا يجعلنا نتوقف عند بعض الاستثناءات القرآنية التي أتي فيها بفعل القول مبنيًّا للفاعل مع مشهد يوم القيامة، أقصد نحو قوله تعالى:﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ(٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَـؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ(٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ(٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ(٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ(٦٦) فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ(٦٧)﴾ [القصص].

يتوقف المفسرون أمام آيات سورة القصص من حيثيات عدة، من حيث المنادِي (الله [مباشرة/ بواسطة الملائكة][١]، ومن حيث المنادَى [الشياطين[٢]/ الجن[٣]/ رؤساء الكفر والضلال[٤] أو رءوس الكفر من العرب

(١) يراجع: المحرر الوجيز، ج٤، ص ٢٩٤- فتح الرحمن، ج٥، ص ٢١٢- أبو حيان الأندلسي: البحر المحيط في التفسير، بعناية الشيخ مجموعة من المحققين، بيروت، دار الفكر، ٢٠١٠م، ج٨، ص ٣١٨، ص ٣١٩.

(٢) يراجع:

- ابن الجوزي، ج٦، ص ٢٣٥- تفسير القرطبي، ج١٦، ص ٣٠٣.
- أبو حفص الدمشقي: اللباب في علوم الكتاب، تحقيق وتعليق عادل أحمد وعلي محمد، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٨م، ج١٥، ص ٢٧٨.

(٣) يراجع: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج١١، ص ٤٩٩.

(٤) يراجع: ابن الجوزي، ج٦، ص ٢٣٥- تفسير القرطبي، ج١٦، ص ٣٠٣- اللباب في تفسير الكتاب، ج١٥، ص ٢٧٨- المظهري: تفسير المظهري، أحمد عزٌّ عناية، لبنان، دار إحياء التراث العربي، ط١، ٢٠٠٤م، ج٧، ص ١٨٣.

خاصة[١]/ كل بني البشر مؤمنهم وكافرهم[٢]][٣]، ومن حيث دلالة تكرار النداء (ويوم يناديهم) على نحو ما تفصل السطور التالية.

والملحظ اللافت للانتباه هنا هو إسناد فعل القول إلى الله تعالى بصيغة البناء للفاعل، ثم العدول عنه إلى صيغة البناء للمفعول، ثم العودة مرة أخرى إلى صيغة البناء للفاعل (فيقول- قيل- فيقول)، وقلما التفت البعض إلى سر ذلك العدول، بل أخرجها- من توقف عندها- إلى دلالة عامة تكررت في تنظيرات النحاة أقصد دلالة العلم بالفاعل "مما تقدم"[٤].

والحق أن النظم القرآني لهذه الآيات لمن بدائع نسقه، فهذه الصيغة التي تتراوح بين البناء للفاعل والبناء للمفعول هي التي توقفنا على حقيقة- أو ما يقرب من حقيقة- الحيثيات التي اعتنى بها المفسرون وهم يتصدون لتفسير هذا المشهد الأخروي العظيم، فهذا التراوح يرجح دلالة التلقي بالمباشرة من الله تعالى دون واسطة، ويرجح دلالة التلقي من قِبَل كل بني آدم دون غيرهم (وقد يكون غير ذلك مما أومأ إليه أكابر المفسرين وسنشير إليه في موضعه)، ويبين هذا التراوح أيضًا فحوى الخطاب في تكرار النداء من قبل الله تعالى، من حيث العموم والخصوص، فهو عام (من ناحية الإلقاء) وقصد به الخاص (من ناحية تلقي الجواب).

---

(١) يراجع: المحرر الوجيز، ج٤، ص ٢٩٤.

(٢) يراجع: البغوي: تفسير البغوي، معالم التنزيل، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله وآخرَين، الرياض، دار طيبة، ١٤٠٩ه، ج٦، ص ٢١٧.

(٣) وقيلت آراء أخرى لا نطمئن إليها، يراجع: تفسير البغوي، ج٦، ص ٢١٧.

(٤) التحرير والتنوير، ج ٢٠، ص ١٦٠.

يبدأ هذا المشهد العظيم بالظرف (ويوم) المعلق بفعل محذوف (اذكر) والمعنى: (واذكر يا محمد) من باب التسلية والتقوية للنبي صلى الله عليه وسلم بسبب ما ناله من أذى قومه، ثم يلقانا الفعل (يناديهم) واختلف الأكابر حول عودة الضمير كما سبق أن بينا، ورجح البحث أن عود الضمير على كل بني البشر، من وجوه (وستتصيد تلك الوجوه تباعًا من الفقرات المتتالية)، على رأسها نظم الآيات من قبل النداء؛ يقول تعالى:﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ(٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ(٥٩) وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ(٦٠) أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ(٦١)﴾ [القصص]، فالآيات السابقة تتحدث عن هلاك الأقوام التي بطرت وجحدت وتكبرت، ثم ثنت بأن هذا الهلاك لم يكن عشوائيًّا، بل تقام الحجة عليهم أولا بإرسال الرسل، ثم تثلث بموعظة لكل البشر وهي أن متاع الدنيا لا يساوي شيئًا أمام ما أعده الله من الخير كل الخير لعباده الصالحين، وتختتم بالمقارنة بين حال المؤمن ومآل الكافر، وهذه المقارنة بين الصنفين يناسبها عود الضمير عليهما معًا (المؤمن والكافر) فقال سبحانه:﴿ويوم يناديهم﴾، ثم نفاجأ بالخطاب:﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، وهذا الخطاب صريح في توجيهه إلى فريق الكفر فقط، وهذا من تعابير القرآن التي تجري على مجاري العرب وأساليبها، من الخطاب الموجه للعام والمراد به الخصوص، نحو استشارة النبي صلى الله عليه وسلم الناس يوم بدر "وإنما يريد الأنصار"، على نحو

ما استنبط ذلك سعد بن معاذ في قوله: "لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل"(١). إذن الخطاب عام من جهة أن الناس يوم القيامة سيبرزون "في صعيد واحد، منهم المطيع والعاصي، وقد أخذ بأنفاسهم الزحام وتراكبت الأقدام على الأقدام"(٢)، والخطاب خاص من جهة فحواه المقصود به الكافرون لا غير، ومن ثم كان مصيرهم كما دلت الآية التالية بعد أن تعللوا بعلل واهية وتمسكوا بحبال رثة: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾.

بعد ذلك يتكرر النداء مرة أخرى بالطريقة نفسها وبالمدلول نفسه العام الخاص، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾، والخطاب هنا على نحو ما تنبه المفسرون عن التصديق بالرسل، أما النداء الأول فخطابه عن قضية التوحيد والإيمان، وفي كل الأمرين يجد المؤمن نفسه من توجيه الخطابين في سعة وراحة وتبشير بروح وريحان، أما الكافر فهو من ترتعد فرائصه لهول ما يسمع وما يرى مما لم يكن يتوقعه.

إن كل ما قدمنا وإن كانت ترجحه بعض السياقات الداخلية والمقامية، فإن ما حدانا إلى ترجيحه وقبوله والإفاضة في تأكيده، هو التراوح في استعمال فعل القول بين البناء للفاعل والبناء للمفعول؛ إذ ما ذهبنا إليه من ترجيح ومذهب مردُّه هذا التراوح.

إن فعل القول- كما بينا ونبين في أجزاء البحث التالية- أحيانًا يدل على المشاهدة متى كان مبنيًّا للفاعل، ويكون المبني للمفعول حينئذ دالًّا على

---

(١) الأغاني، ج٤، ص ١٧٨.

(٢) المراغي: تفسير المراغي، مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي بمصر، ط١، ١٩٤٦م، ج٢٠، ص ٨١.

التلقي الفيزيائي (السماع دون مشاهدة)، ومن ثم نجد فعل القول تكرر ثلاث مرات توسطتها مرة بصيغة المبني للمفعول، ونرجح أن ذلك دالٌّ على أن المبني للفاعل (فيقول) يشمل المؤمن والكافر، وأتي بالمعلوم كرامة ومنزلة لانضمام معسكر المؤمنين مع معسكر الكافرين في النداء- وإن كان المؤمنون غير مقصودين- ولما كان الخطاب عامًّا، فعدل النظم القرآني- والله أعلم- عن المبني للفاعل إلى المبني للمفعول- ليدل على هذا الانضمام من ناحية، وليدل على اطمئنان المؤمن ساعة تلقي الخطاب وكأنه في حضرة الذات العلية ومن يتبعها من اطمئنان وسكينة ووعد، في مقابل تقريع الكافرين ساعة سماع الخطاب وكأنهم يرون ربهم ساعة حسابهم من هول ما يرون من ذُل ومهانة ومن شدة ما يسمعون من تهكمات، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦].

أما عندما يكون الخطاب ملقًى إلى معسكر الكافرين فقط، تأتي صيغة المبني للمفعول، تحقيرًا لهم من ناحية، ولتؤكد تلقي السماع مباشرة من ناحية أخرى:

- ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ(٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ(٦٣)﴾ [الخطاب لكل البشر وأريد به الكافرون].

- ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ(٦٤)﴾ [الخطاب للكافرين فقط].

- ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ(٦٥)﴾ [الخطاب لكل البشر وأريد به الكافرون].

أما غيرها من الآيات التي جاء فيها فعل القول مبنيًّا للفاعل مع مشهد يوم القيامة، فقد سيق في مخاطبة الكافرين فقط، هذا من جهة، كما أن ضم الآيات بعضها إلى بعض له دور في استجلاء المعنى من جهة أخرى؛ إذ تتضافر الجهتان وتتلازمان لتأكيد أن كلام الله تعالى للظالمين لم يكن مباشرًا بل كان بواسطة الملائكة، نحو قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ(٨٣) حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٨٤)﴾ [النمل]، فقد بينت الآيات أن الخطاب موجه لمن كذب بآيات الله، ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، فخاطبهم الله كما حكى القرآن ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وهذا الخطاب لأنه موجه إلى فئة بعينها فقد جاء بفعل القول على أصله لدلالة خروجه عن السماع المباشر من رب العزة بل كان تلقيهم الخطاب بواسطة الملائكة، على نحو ما فصلت ذلك آيات سورة الأعراف التي يورد فيها "الحق- تبارك وتعالى- مذكرة تفصيلية لهذا الموقف، ولهذا الحوار الذي يدور في عرصات القيامة"[(١)]، قال تعالى:﴿فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افتَرى عَلَى اللَّـهِ كَذِبًا أَو كَذَّبَ بِآياتِهِ أُولـئِكَ يَنالُهُم نَصيبُهُم مِنَ الكِتابِ حَتّى إِذا جاءَتهُم رُسُلُنا يَتَوَفَّونَهُم قالوا أَينَ ما كُنتُم تَدعونَ مِن دونِ اللَّـهِ قالوا ضَلّوا عَنّا وَشَهِدوا عَلى أَنفُسِهِم أَنَّهُم كانوا كافِرينَ(٣٧) قالَ ادخُلوا في أُمَمٍ قَد خَلَت مِن قَبلِكُم مِنَ الجِنِّ وَالإِنسِ فِي النّارِ كُلَّما دَخَلَت أُمَّةٌ لَعَنَت أُختَها حَتّى إِذَا ادّارَكوا فيها جَميعًا قالَت أُخراهُم لِأولاهُم رَبَّنا هـؤُلاءِ أَضَلّونا فَآتِهِم عَذابًا ضِعفًا مِنَ النّارِ قالَ لِكُلٍّ ضِعفٌ وَلـكِن لا تَعلَمونَ(٣٨)﴾ [الأعراف]؛ إذ صرحت الآيات بأن خطاب

(١) تفسير الشعراوي، ص ١٠٨٥٣.

الله تعالى كان للمكذبين بآيات الله :﴿فَمَن أَظلَمُ مِمَّنِ افتَرى عَلَى اللَّـهِ كَـذِبًا أَو كَذَّبَ بِآياتِهِ﴾، وأن تلقي الخطاب كان بواسطة الملائكة:﴿حَتّى إِذا جاءَتهُم رُسُلُنا يَتَوَفَّونَهُم قالوا أَينَ ما كُنتُم تَدعونَ مِن دونِ اللَّـهِ قالوا ضَـلّوا عَنّا وَشَهِدوا عَلى أَنفُسِهِم أَنَّهُم كانوا كافِرينَ﴾، وإذا عُدل الخطاب من الملائكة إلى فعل القول المعلوم:﴿قالَ ادخُلوا في أُمَمٍ قَد خَلَت مِن قَبلِكُم مِنَ الجِنِّ وَالإِنسِ فِي النّارِ كُلَّما دَخَلَت أُمَّةٌ لَعَنَت أُختَها حَتّى إِذَا ادّارَكوا فيها جَميعًا قالَت أُخراهُم لِأولاهُم رَبَّنا هـؤُلاءِ أَضَلّونا فَآتِهِم عَذابًا ضِعفًا مِنَ النّارِ قالَ لِكُلٍّ ضِعفٌ وَلـكِن لا تَعلَمونَ(٣٨)﴾ فقد قيدته آية الملائكة السابقة، بأنه ليس كلامًا مباشرًا من الله وإنما بواسطة الملائكة، وهذا من دلائل قمة تشريف الله للمؤمنين إذا دخلوا في الخطاب مع غيرهم من الكافرين، ومن دلائل خزي الله للكافرين متى تفردوا بالخطاب، رغم أن الصيغة قد تكون واحدة، ويحمل على ذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ: ٤٢]، وقوله تعالى:﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَـذَا بِالْحَقّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَـكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ(٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ(٢٨)﴾ [ق]، لا سيما أن هذه الآيات تحكي عن موقف آخر غير موقف العرض، موقف المآل، فانتقل الخطاب من دلالة الجمع بينهم وبين المؤمنين، إلى الخطاب إليهم فقط، وتغير الموقف، فهم سمعوا أول الأمر زجر الله تعالى لهم على ما قدموا، ثم أعرض الله تعالى عنهم وألقى إليهم الخطاب بواسطة الملائكة، وربما تكون آيات البناء للفاعل من كلام الملائكة، والبناء للمفعول من كلام الله تعالى لإنهاء إلحاح أهل النار على خزنة جهنم

بأن يخفف الله عنهم العذاب، فإذا ما تلقوا كلام الله تعالى مباشرة يئسوا من أي بارقة أمل قد تنجيهم لسوء فعالهم.

٣- حَمْد الله تعالى يوم القيامة:

توقف المفسرون أمام قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]، وتباينوا في مَخرجِ القول: بين قائل من قول الملائكة(١)، وقائل من قول المؤمنين(٢)، وقائل من قول الرسل والملائكة وأهل الجنة(٣)، وقائل من قول جميع العباد(٤)، وقائل من قول جميع المخلوقات ناطقها وبهيمها(٥)، وقائل من كلام الله تعالى؛ لأنه "قال في ابتداء الخلق ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وقال بعد إفناء الخلق ثم بعد بعثهم واستقرار أهل الجنة في الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾"(٦)، وإلى هذا الرأي الأخير يميل البحث لوجهين: الأول- المناسبة لتحميد الله

(١) الكشاف، ج٥، ص ٣٢٦- تفسير القرطبي، ج ١٨، ص ٣٢١- تفسير المظهري، ج٨، ص ١٨٥- تفسير البيضاوي، ج ٥، ص ٥٠- تفسير الرازي، ج ٢٧، ص ٢٥- اللباب في علوم الكتاب، ج ١٦، ص ٥٥٧- تفسير أبي السعود، ج٤، ص ٦٢٩- فتح القدير، ص ١٢٩٣.

(٢) يراجع: مجمع البيان، ج٨، ص ٣١٩- زاد المسير في علم التفسير، ج٧، ص ٢٠٢- تفسير القرطبي، ج ١٨، ص ٣٢١- تفسير البيضاوي، ج ٥، ص ٥٠- تفسير الرازي، ج ٢٧، ص ٢٥- تفسير المظهري، ج٨، ص ١٨٥- تفسير أبي السعود، ج٤، ص ٦٢٩- فتح الرحمن، ج٦، ص ٩٣- فتح القدير، ص ١٢٩٣.

(٣) التحرير والتنوير، ج ٢٤، ص ٧٤.

(٤) الكشاف، ج٥، ص ٣٢٦.

(٥) تفسير ابن كثير، ج ١٢، ص ١٦٣.

(٦) مجمع البيان، ج٨، ص ٣١٩.

تعالى نفسه ابتداءً وانتهاءً كما ذكر الطبرسي، والوجه الثاني ما جاء في أواخر سورة الجاثية بما يؤكد أن التحميد يوم القيامة صادر من الله عز وجل،قال تعالى:﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٣٧)﴾.

وقد دل بناء الفعل للمفعول (قيل) على هذا المعنى، ليدل على أن التحميد صادرٌ أولًا من الله تعالى فسمعه جميع الخلق من البشر مؤمنهم وكافرهم، والملائكة، والجن، وغير الناطقين، ليستيقن كل من سمع تحميد الله نفسه من صفات الله تعالى اللائقة بجلاله وكماله التي أوجبت للمؤمنين الجنة، وأوجبت النار على الخارجين عن طاعته والمتكبرين، ثم تلقت الملائكة وتلقى البشر وجميع الخلق هذا التحميد فرددوه شكرًا لله تعالى على إدخاله المؤمنين الجنة والكافرين النار (الملائكة والرسل)، وشكرًا لله تعالى على تفضله وإنعامه بإدخالهم الجنة (المؤمنون)، وحمدًا في حكمه وعدله (جميع الخلق)، ولذلك لا نجد تعارضًا بين ما رجحنا من رأي وبين قوله تعالى حكاية على لسان أهل الجنة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهدِيهِم رَبُّهُم بِإيمانِهِم تَجري مِن تَحتِهِمُ الأَنهارُ في جَنّاتِ النَّعيمِ(٩) دَعواهُم فيها سُبحانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُم فيها سَلامٌ وَآخِرُ دَعواهُم أَنِ الحَمدُ لِلَّهِ رَبِّ العالَمينَ(١٠)﴾ [يونس]، وهذا شبيه بالآيات التي حكت عن رمي موسى بالسحر على لسان فرعون تارة وعلى لسان ملئه تارة أخرى، قال تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿قَالَ المَلَأُ مِن قَومِ فِرعَونَ إِنَّ هـذا لَساحِرٌ عَليمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩]، ففرعون قال أولًا، ثم ردد الملأ ثانيًا، وهذا نسق أسلوبي في القرآن الكريم أشار إليه المفسرون.

ثانياً- التلقي الفيزيائي مع مشهد نوح عليه السلام (وحي الله له وللأرض والسماء):

قال تعالى: ﴿وَقِيلَ يا أَرضُ ابلَعي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقلِعي وَغيضَ الماءُ وَقُضِيَ الأَمرُ وَاستَوَت عَلَى الجودِيِّ وَقيلَ بُعدًا لِلقَومِ الظّالِمينَ(٤٤) وَنادى نوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابني مِن أَهلي وَإِنَّ وَعدَكَ الحَقُّ وَأَنتَ أَحكَمُ الحاكِمينَ(٤٥) قالَ يا نوحُ إِنَّهُ لَيسَ مِن أَهلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيرُ صالِحٍ فَلا تَسأَلنِ ما لَيسَ لَكَ بِهِ عِلمٌ إِنّي أَعِظُكَ أَن تَكونَ مِنَ الجاهِلينَ(٤٦) قالَ رَبِّ إِنّي أَعوذُ بِكَ أَن أَسأَلَكَ ما لَيسَ لي بِهِ عِلمٌ وَإِلّا تَغفِر لي وَتَرحَمني أَكُن مِنَ الخاسِرينَ(٤٧) قيلَ يا نوحُ اهبِط بِسَلامٍ مِنّا وَبَرَكاتٍ عَلَيكَ وَعَلى أُمَمٍ مِمَّن مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُم ثُمَّ يَمَسُّهُم مِنّا عَذابٌ أَليمٌ(٤٨)﴾ [هود].

في قصة نوح عليه السلام، نحن أمام مشهد مركب من عدد من الأحداث: الحدث الأول- تكليم الله للأرض والسماء﴿وَقيلَ يا أَرضُ ابلَعي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقلِعي﴾، والحدث الثاني- الدعاء على الظالمين الغارقين﴿وَقيلَ بُعدًا لِلقَومِ الظّالِمينَ﴾، والحدث الثالث- تكليم الله لنوح عليه السلام قالَ يا نوحُ إِنَّهُ لَيسَ مِن أَهلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيرُ صالِحٍ فَلا تَسأَلنِ ما لَيسَ لَكَ بِهِ عِلمٌ إِنّي أَعِظُكَ أَن تَكونَ مِنَ الجاهِلينَ(٤٦) قالَ رَبِّ إِنّي أَعوذُ بِكَ أَن أَسأَلَكَ ما لَيسَ لي بِهِ عِلمٌ وَإِلّا تَغفِر لي وَتَرحَمني أَكُن مِنَ الخاسِرينَ(٤٧)﴿قيلَ يا نوحُ اهبِط بِسَلامٍ مِنّا وَبَرَكاتٍ عَلَيكَ وَعَلى أُمَمٍ مِمَّن مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُم ثُمَّ يَمَسُّهُم مِنّا عَذابٌ أَليمٌ(٤٨)﴾.

وإذا استعرضنا الأحداث الثلاثة في ذلك المشهد التصويري البديع، نلحظ في الحدث الأول- كما قرر المفسرون- أن الأرض والسماء نزلتا منزلة المخاطب العاقل المميز، وقد وجه الخطاب إليهما مباشرة من الذات

العلية دون واسطة، وهذا هو السر في العدول عن البناء للفاعل (قال) إلى البناء للمفعول (قيل)، فقد ذهب المفسرون إلى أنَّ مجيء مجموعة الأفعال (قيل- غيض- قضي) "على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء، وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل قادر، وتكوين مكون قاهر، وأن فاعل هذه الأفعال فاعل واحد لا يشارك في أفعاله"(١)، وإذا خصصنا الكلام على الفعل (قيل) لأمسكنا بسر العدول، وهو السماع المباشر من الأرض والسماء لأمر رب العزة دون واسطة ودون إلهام، إذ لو جاء على الأصل بالمعلوم لظُنَّ أن الأمر وجه إليهما إلهامًا أو بواسطة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لم ترَ الأرض والسماء رب العزة ساعة صدور الأمر، إذا تلقيا الأمر مباشرة دون رؤية الذات العلية، وأحسب أن هذا التوجية لدلالة المبني للمفعول أكثر وضوحًا من مجرد التمسك بأن الأمر صدر من ذي قدرة لا ينازع في قهره وجبروته وملكه، لأن تلك الدلالة عامة ومفهومة وواضحة.

وأما الحدث الثاني الخاص بالدعاء على الظالمين، فمما قيل فيه أن الدعاء ربما يكون من قول الله عز وجل(٢)، وقيل: من قول الملائكة(٣)،

---

(١) الكشاف، ج٣، ص ٢٠٣، وانظر: البحر المحيط، ج ٦، ص ١٥٩، ص ١٦٠، ويراجع: المحرر الوجيز، ج٣، ص ١٧٥- اللباب في علوم الكتاب، ج ١٠، ص ٤٩٨.

(٢) يراجع: تفسير الرازي، ج ١٧، ص ٢٤٤- التحرير والتنوير، ج ١٢، ص ٧٩. ولم يقل بغير ذلك الطبري من قبلُ (تفسير الطبري، ج ١٢، ص ٤١٩)، وأقره غير واحد من المتأخرين كالمظهري الذي لم يقل بغير ذلك أيضًا، (تفسير المظهري، ج ٤، ص ٣٩٧)، والشوكاني الذي مال إلى ذلك ورجحه على غيره، (فتح القدير، ص ٦٥٩).

(٣) يراجع: تفسير الطبرسي، ج٥، ص ٢١٧.

وقيل: من قول نوح والمؤمنين[١]، وقيل: من كلام المؤمنين "تحقيرًا للكفار وتشفيًّا منهم واستراحة"[٢]، والأول عندي أرجح[٣] من وجوه ثلاثة يقوي كل واحد فيها الآخرين: الوجه الأول- مشاكلة صدر الآية، فالأمر في أول الآية صادر من رب العزة، والدعاء بالهلاك في عجزها نحسبه من كلام الله عز وجل لتلك المناسبة/ المشاكلة، وقد أشار الشوكاني إلى هذه المناسبة وعضد بسببها أن الكلام مصدره الله سبحانه وتعالى[٤].

والوجه الثاني- أن هذا الدعاء على نحو ما قرر المفسرون تذكير لنوح عليه السلام في أول الأمر بعدم مخاطبة الله جلا وعلا في أمر الظالمين[٥]، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَاصنَعِ الفُلكَ بِأَعيُنِنا وَوَحينا وَلا تُخاطِبني فِي الَّذينَ ظَلَموا إِنَّهُم مُغرَقونَ﴾ [هود: ٣٧]، وصاحب النهي في أول الأمر هو الله جلا وعلا، فالمناسب لذلك- كما نرى والله أعلم- أن الدعاء صادر منه سبحانه تذكيرًا وتأكيدًا لهلاكهم.

---

(١) يراجع: تفسير الطبرسي، ج٥، ص ٢١٧- تفسير الرازي، ج ١٧، ص ٢٤٤- فتح القدير، ص ٦٥٩.

(٢) التحرير والتنوير، ج ١٢، ص ٨٠.

(٣) رجح الرازي- وأيده أبو حفص فيما نقل عنه- الرأي القائل بأن الدعاء من نوح وأصحابه؛ "لأن الغالب ممن يسلم من الأمر الهائل بسبب اجتماع قوم من الظلمة فإذا هلكوا ونجا منهم قال مثل هذا الكلام، ولأنه جار مجرى الدعاء عليهم فجعله من كلام البشر أليق"، (تفسير الرازي، ج ١٧، ص ٢٤٤، اللباب في علوم الكتاب، ج ١٠، ص ٥٠٠)، ولا نميل إلى هذا الرأي لوجهين: الأول- أن الدعاء على الظلمة والطغاة وارد من قبل الله عز وجل، كما في كتابه الكريم، نحو (فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر)، والوجه الثاني ما صرح به الرازي بأن "متى قيل قيل لا ينصرف العقل إلا إليه"، (ج ١٧، ص ٢٤٤)، أي الله سبحانه وتعالى، وهذا يناقضه الوجه الذي رجحه.

(٤) ينظر: فتح القدير، ص ٦٥٩.

(٥) ينظر: تفسير أبي السعود، ج٣، ص ٤٩.

والوجه الثالث- دلالة العدول (قيل) المناسبة لـ(قيل) في صدر الآية، والمرجحة عندنا أن الكلام صدر من جهة عليا مسموعة لا يعلم أين هي، تشريفًا لنوح عليه السلام وتثبيتًا للمؤمنين الناجين، فنحسب والله أعلم أن نوحًا والمؤمنين سمعوا هذا الدعاء الصادر من الله سبحانه وتعالى مباشرة.

وأما الحدث الثالث فتظهر فيه دلالة التلقي الفيزيائي بصورة واضحة اعتمدنا عليها في فهم الحدثين السابقين، أقصد التصريح بالفعل المعلوم ﴿قالَ يا نوحُ﴾، والفعل المبني للمفعول ﴿قيلَ يا نوحُ﴾ في مخاطبة نوح عليه السلام من قبل رب العزة، وقد أتي بفعل القول في موضع بالبناء للفاعل، وفي موضع بالبناء للمفعول[١]، والسر في ذلك أنَّ الموضع الأول كان الخطاب من قبل رب العزة إلى نوح عن طريق الواسطة (الوحي)، أما الموضع الثاني فكان الخطاب إلى نوح مباشرة؛ فنحسب والله أعلم أن نوحًا عليه السلام تلقى الأمر من الله عز وجل دون واسطة السماع دون المشاهدة[٢].

---

(١) قيل إن الكلام صادر من الملائكة (ينظر: تفسير القرطبي، ج ١١، ص ١٣٨)، وهذا أمر ينفيه تركيب الآية ومساق الآيات ونظمها، ولذلك لم نلتفت إليه.

(٢) قد يعترض علينا البعض في توجيه الدلالتين بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ(٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ(٣٢) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ(٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ(٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ(٣٥)﴾ [القصص]، إذ ورد فعل القول مع رب العزة بالبناء للمعلوم لا المجهول، غير أنه اعتراض ينقده طبيعة المشهدين =

وينبغي الالتفات إلى أن كلام الله تعالى لنوح عليه السلام كان بواسطة، ولم يكن سماع الدعاء للحوار القائم بين متكلم ومخاطب كلامًا حاصلًا بين جهتي التكلم والخطاب، وهذا عكس الحوار الدائر بين موسى عليه السلام وربه، فقد كان كلامًا مباشرًا، ومن ثم فإن كلام الله تعالى لنوح عليه السلام كان مجرد سماع لدعاء من الله جلا وعلا له وللمؤمنين معه ليطمئنوا وليثبتوا ولا يقلقوا من تصرفات المعيشة في الحياة عند عودتهم إلى الأرض، وقد كان هذا في المشهد الأخير من قصة الطوفان، أما غير ذلك فكان وحيًا، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَأوحِيَ إِلى نوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤمِنَ مِن قَومِكَ إِلّا مَن قَد آمَنَ فَلا تَبتَئِس بِما كانوا يَفعَلونَ﴾ [هود: ٣٦].

= أو الحوارين، فمع موسى عليه السلام كلمه الله تعالى وأجاب موسى ربه، نحو قوله تعالى: ﴿وَما تِلكَ بِيَمينِكَ يا موسى(١٧) قالَ هِيَ عَصايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيها وَأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمي وَلِيَ فيها مَآرِبُ أُخرى(١٨)﴾ [طه]، أما مع نوح فلم يكن هذا الحوار الدائر، بل كان أمرًا سمعه نوح للاطمئنان، فلزم الانتباه إلى ذلك بالعدول عن المعلوم إلى المجهول، ولما كان الحوار مع موسى لتكرره أصبح كالمشاهد، لم يكن هناك حاجة للعدول فجاء الفعل على أصله، وتكرر في المواضع التالية من سورة طه، قال تعالى: ﴿وَما تِلكَ بِيَمينِكَ يا موسى(١٧) قالَ هِيَ عَصايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيها وَأَهُشُّ بِها عَلى غَنَمي وَلِيَ فيها مَآرِبُ أُخرى(١٨) قالَ أَلقِها يا موسى(١٩) فَأَلقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسعى(٢٠) قالَ خُذها وَلا تَخَف سَنُعيدُها سيرَتَهَا الأولى ﴿٢١﴾ ... قالَ قَد أوتيتَ سُؤلَكَ يا موسى(٣٦) وَلَقَد مَنَنّا عَلَيكَ مَرَّةً أُخرى(٣٧) ... اذهَبا إِلى فِرعَونَ إِنَّهُ طَغى(٤٣) فَقولا لَهُ قَولًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَو يَخشى(٤٤) قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَن يَفرُطَ عَلَينا أَو أَن يَطغى(٤٥) قالَ لا تَخافا إِنَّني مَعَكُما أَسمَعُ وَأَرى(٤٦)﴾، ولذلك فإن أول كلام من الله تعالى جاء بصيغة المجهول (نودي)، ولما اعتاد موسى عليه السلام تكليم ربه أصبح الأمر مختلفًا؛ إذ لم يعد من المناسب التعبير بالمجهول، والله أعلم.

ثالثًا- التلقي الفيزيائي مع مشهد سليمان وملكة سبأ (السماع من محيط المكان):

من طرائق الإعلام بخفاء السماع من جهة المكان وما يحيط به، ويحمل على ذلك قوله تعالى حكاية عن سليمان وملكة سبأ: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ(٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٤٤)﴾[النمل].

تكررت الصيغة مرتين في خطاب ملكة سبأ وهي في حضرة ملك سليمان، والظاهر أن ملكة سبأ لم تر سليمان عليه السلام إلا بعد أن دخلت الصرح، وقد وجه إليها الكلام ثلاث مرات: ﴿قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾، ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾، ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾، وكان الفعل مبنيًّا للمفعول في الموضعين الأولين، ومبنيًّا للفاعل في الموضع الأخير، وذهب قطاع من المفسرين إلى أن القائل بصيغة البناء للفاعل (قال) هو سليمان عليه السلام، ويحمل عليه الموضعان الآخران المساقان بصيغة المبني للمفعول، وقد أشار أبو السعود إلى حمل القول "من جهة سليمان عليه السلام بالذات أو الواسطة"(١)، غير أننا نخالف أبا السعود في دلالة الإباحة (أو الواسطة) إذ نذهب إلى أن القائل هو سليمان بذاته دون واسطة، ومن ثم يبرز التساؤل لم عدل عن صيغة البناء للفاعل، ثم أتي بها بعد ذلك؟ والجواب من وجهين:

---

(١) تفسير أبي السعود، ج٤، ص ٢٦٤.

الوجه الأول- أن سليمان يريد أن يثبت لجنوده كافة (أولًا) حتى لا يفتتنوا بملك سبأ، ويثبت لملكة سبأ وقومها (ثانيًا) عظمة ما أتاه الله لسليمان عليه السلام من معجزات سخرت له كل شيء، حتى تطمئن الملكة قلبًا وتطب نفسًا وتسلم مع سليمان لا عن خوف بل عن اقتناع.

الوجه الثاني- أن من عظمة ما أوتي سليمان ما قد يظن الجن أنه الوحيد القادر على ذلك، وهو الكلام بخفاء، فيسمع الصوت دون أن يعلم من أي جهة يأتي، وهذا هو السر في العدول عن الصيغة من البناء للفاعل (قال) إلى البناء للمفعول (قيل)، فكأنها إشارة إلى أن الملكة عندما رأت العرش سمعت صوتًا دون أن ترى القائل أو تعرف من أي جهة يأتي: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾، فأجابت بما يشي بحكمتها ورويتها ورزانة عقلها، ثم سمعت الصوت نفسه يأمرها ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾، فامتثلت للأمر، ثم فوجئت بأن القائل هو سليمان عليه السلام في أول لحظة استقبال ساعة دخولها الصرح: ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾، ولعلها فطنت- دون شك- إلى أن الصوت لم يتغير من ذي قبل، فكانت الآيات تتراءى أمام عينها وتقع على سمعها تترى، مما هيأ لاستجابتها السريعة للإيمان بسليمان عليه السلام ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

رابعاً- التلقي الفيزيائي مع مشهد بني إسرائيل (السماع من جهة أعلى):

وردت صيغة الماضي المبني للمفعول (قيل) في سياق الحديث عن اليهود في أكثر من موضع في القرآن الكريم، وتفهم دلالة الصيغة من خلال معرفتنا بأخلاق اليهود المادية الطاغية، فهم لا يعتدون بالروح لماديتهم.

من ذلك قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩]، فدلالة الصيغة هنا على معنى الوحي أو الإعلام بخفاء، ويرجح ذلك السياق الذي وردت فيه الصيغة؛ إذ قبلها الفعل المبني للفاعل بالدلالة نفسها (قلنا= أوحينا)، ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ(٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(٥٩)﴾ [البقرة]، ولكنه عدل عن الصيغة المعلومة (قاله الله لهم) إلى صيغة البناء للمفعول للعلم بالقائل وهو الله سبحانه وتعالى كما ساقت الآية السابقة (قلنا)، غير أن اللافت للانتباه هو استخدام فعل القول (قيل) ونسبة إلقائه إليهم مباشرة (قيل لهم)، ولم يكن النظم مثلًا (وُجه إليهم- أو أمروا به)، وفي هذا إشعار بأنهم سمعوا الكلام من الرب مباشرة، والظاهر أن الذين سمعوا هذا الكلام هم السبعون رجلًا الذين اختارهم موسى ليتضرعوا ويسألوا الله العفو عما أسرفوا وأسرف قومهم، ومما يدعم هذا القول قوله تعالى في الآيات السابقة حكاية عن مادية بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً

فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥][(١)]، فقد ذهب المفسرون إلى أن القائلين هم السبعون رجلًا، هذا من ناحية، من ناحية أخرى نلحظ أنهم علقوا الإيمان على رؤية الله جهرة، مما يعني عدم اعتدادهم بالسماع الغيبي/ الإعلام بخفاء، وهذا مشعر بأنهم تدرجوا في التعنت، فلم يكن طلبهم الرؤية إلا بعد سماع كلام الرب لموسى عليه السلام، وفي الأثر على نحو ما يروي الطبري وغيره- وإن كان فيه ضعف- أن السبعين رجلًا "قالوا يا موسى: اطلب لنا إلى ربك نسمع كلام ربنا، فقال أفعل... وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه بالحجاب، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجودًا فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه: افعل ولا تفعل، فلما فرغ إليه من أمره انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم فقالوا لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾"[(٢)]، ولعل مما سمعوه من الرب لموسى هو ما حكاه القرآن ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَـٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ(٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(٥٩)﴾، ويدعم ذلك أيضًا هذا الاختيار وهذه الأفضلية المحكية في القرآن الكريم في سورة الدخان: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ(٣٢) وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ

---

(١) وقد تكرر هذا المشهد في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٥٣].

(٢) تفسير ابن كثير، ج١، ص ٤٠٥.

مُّبِينٌ(٣٣)﴾، فقد أطبق المفسرون على أن مرجع الضمير (اخترناهم) يعود على بني إسرائيل- وإن تباينوا في عموم الأفضلية أو خصوصيتها، وفي علة أفضليتهم- وأنَّ الله تعالى أعطاهم وخصهم من عظائم الآيات وخوارق العادات ما لم يحظ بها سواهم من العالمين، وقد مثل المفسرون لهذه الآيات وتلك الخوارق بالمعجزات المشهورة كالمن والسلوى وفلق البحر وتظليل الغمام وغيرها من المعجزات المصرح بها(١)، ولعلنا لا نبالغ إذا أضفنا إلى ذلك أعظم عظائم الآيات وهي سماع كلام الله تعالى لموسى بافعل ولا تفعل، وفي سفر الخروج إشارات إلى سماع بني إسرائيل لكلام الله تعالى، من نحو: "فالآن إن سمعتم لصوتي، وحفظتم عهدي تكونون [هكذا] لي خاصة من بين جميع الشعوب" [خروج: ١٩/ ٥]، "ها أنا آت إليك في ظلام السحاب لكي يسمع الشعب حين أتكلم معك" [خروج: ١٩/ ٩].

(١) يراجع: الكشاف، ج٥، ص ٤٧٣- مجمع البيان، ج٩، ص ٨٥- تفسير ابن كثير، ج١٢، ص ٣٤٦- تفسير المظهري، ج٨، ص ٣١٠- الدر المنثور، ج١٣، ص ٢٧٨- تفسير أبي السعود، ج ٥، ص ١٠٥.

الخاتمة:

حاولت في السطور السابقة أن أنظر لمفهوم (التلقي الفيزيائي)، وأطبقه على لغة القرآن الكريم من خلال إضافة دلالة جديدة من الدلالات التي من أجلها يحذف الفاعل وينوب عنه المفعول، وذلك من خلال البحث عن الدلالات المسوقة مع فعل القول المبني للمفعول (قيل) باستنطاق بعض الشواهد القرآنية الداعمة لهذا المفهوم.

وقد اقتضت طبيعة الدراسة البدء بمبحث نظري عن المبني للمفعول في حديث النحاة قديمًا وحديثًا، وموقعه داخل النص العربي عامة والقرآن الكريم خاصة، ثم عرض المبحث لمفهوم الدراسة الذي تبنته (التلقي الفيزيائي) وتصفيته من المفاهيم المقاربة أو المتداخلة معه نحو الوحي والإلهام وغيرهما من المفاهيم الدائرة في الحقول العلمية المختلفة، واختتمت المداخل التنظيرية بالحديث عن دلالة فعل القول في القرآن الكريم.

وقد اختص المبحث التطبيقي بدلالة التلقي الفيزيائي من خلال فعل القول المبني للمفعول مع أربعة مشاهد: مشهد الآخرة (كلام الله تعالى لجهنم- كلام الله تعالى للبشر)، ومشهد طوفان نوح (كلام الله تعالى للأرض والسماء)، ومشهد ملكة سبأ ساعة نزولها على ملك سليمان، ومشهد بني إسرائيل المختارين للذهاب مع موسى عليه السلام.

وقد أكد هذا المبحث بمشاهده الأربعة دلالة التلقي الفيزيائي التي دل عليها الفعل المبني للمفعول (قيل)، وهي دلالة مفادها تلقي المخاطَب كلامًا مسموعًا دون أن يرى المتكلم سواء أعرف جهة الكلام أم لم يعرف، وسواء أعرف المتكلم أم لم يعرف.

والمتأمل في شواهد الدراسة يلاحظ أن فعل القول المعلوم ينوب عن فعل القول المبني للمفعول أحيانًا في الدلالة، مما قد يوحي ببطلان دعوى المفهوم المقترح، بيد أن الدراسة حاولت استنباط سر العدول عن المبني للمفعول إلى الأصل المبني للفاعل وإن كانت الدلالة واحدة، كما أنه أحيانًا قد تتناوب الصيغة بين المبني للفاعل والمبني للمفعول في القراءة الواحدة مما أدى إلى محاولة تفسير ذلك أيضًا بما يدعم تأكيد دلالة المفهوم المقترح، وقد أضاف كل هذا فيضًا من المعاني والتنبيهات المؤكدة لدلالة التلقي الفيزيائي، والواقفة موقفًا وسطًا أمام الاجتهادات التي بينها أكابر المفسرين، نحو كلام الله تعالى بذاته أو بواسطة.

مصادر الدراسة ومراجعها

أولاً- القرآن الكريم، جلَّ من أنزله.

ثانياً- المصادر التراثية:

- الباقلاني (ت ٤٠٣ه): الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل بـه، تحقيق محمد زاهد الكوثري، القاهرة، المكتبة الأزهرية للتراث، ط٢، ٢٠٠٠م.
- البغوي (ت ٥١٦ه): تفسير البغوي، معالم التنزيل، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله وآخرَين، الرياض، دار طيبة، ١٤٠٩ه.
- البقاعي (ت ٨٨٥ه): نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي،ج١٦، ١٩٨٠.
- البيضاوي (ت ٦٩١ه): أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، إعداد وتقديم محمد المرعشلي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١.
- ابن الجوزي (ت ٥٩٧ه): زاد المسير في علم التفسير، بيروت، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٩٨٤م.
- أبو حفص الدمشقي (ت ٨٨٠ه): اللباب في علوم الكتاب، تحقيق وتعليق عادل أحمد وعلي محمد، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٨م.
- أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥): البحر المحيط في التفسير، بعناية الشيخ مجموعة من المحققين، بيروت، دار الفكر، ٢٠١٠م.
- الرازي (ت ٦٠٤ه): تفسير الفخر الرازي، بيروت، دار الفكر، ط١، ١٤٠١ه- ١٩٨١م.

- الزبيدي (ت ١٢٠٥ه): تاج العروس من جواهر القاموس، [تحقيق مجموعة من المحققين] الكويت، مطبعة الكويت، ١٩٦٥م.
- الزمخشري (ت ٥٣٨ه): الكشاف، تحقيق عادل أحمد عبدالموجود، علي معوض، الرياض، مكتبة العبيكان، ط١، ١٩٩٨م.
- أبو السعود (ت ٩٨٢ه): تفسير أبي السعود، أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، الرياض، مكتبة الرياض الحديثة، ١٩٧١م.
- السيوطي (ت ٩١١ه): الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تحقيق عبد الله التركي، المهندسين، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، ط١، ٢٠٠٣م.
- الشوكاني (ت ١٢٥٠ه): فتح القدير، الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، اعتنى به وراجع أصوله يوسف الغوش، بيروت، دار المعرفة، ط٤، ٢٠٠٧م.
- الطبرسي(ت ٥٤٨ه): مجمع البيان في تفسير القرآن، بيروت، دار العلوم، ط١، ٢٠٠٦م.
- الطبري (ت ٣١٠ ه): جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق عبد الله التركي، القاهرة، دار هجر، ط١، ١٤٢٢ه- ٢٠٠١م.
- ابن عطية (ت ٥٤٦ه): المحرر الوجيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠١م.
- الفاكهاني (ت ٧٣٤ه): عقيدة في أصول الدين، تحقيق مكتب إحياء التراث الإسلامي بمشيخة الأزهر الشريف، هدية مجلة الأزهر، جمادى الآخرة ١٤٤١ه- فبراير ٢٠٢٠م.

- أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦ه): الأغاني، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠م.
- الفيروزابادي (ت ٨١٧ ه): بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ج٢، ج٤، تحقيق محمد على النجار (١٩٩٦م، ٢٠٠٠م).
- القرطبي (ت ٦٧١ه): الجامع لأحكام القرآن، تحقيق عبد الله التركي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٦م.
- القشيري (ت ٤٦٥ه): الرسالة القشيرية في علم التصوف: تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، القاهرة، المكتبة التوفيقية، ط٢، ٢٠١٥م.
- ابن كثير (ت ٧٧٤ه): تفسير القرآن العظيم، تحقيق مصطفى السيد وآخرين، الجيزة، مكتبة قرطبة، ط١، ٢٠٠٠م.
- المظهري (ت ١١٢٥ه): تفسير المظهري، أحمد عزٌّ عناية، لبنان، دار إحياء التراث العربي، ط١، ٢٠٠٤م.
- المقدسي (ت ٩٢٧ه): فتح الرحمن في تفسير القرآن، تحقيق نور الدين طالب، قطر، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ط١، ٢٠٠٩م.

ثالثاً- المراجع العربية والمترجمة:

- بالمر: علم الدلالة، ترجمة مجيد الماشطة، الجامعة المستنصرية، ١٩٨٥م.
- حسن محمود: بناء الجملة في شعر زهير بن أبي سلمى، ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ٢٠٠٣م.

- سعد مصلوح: دراسة السمع والكلام- صوتيات اللغة من الإنتاج إلى الإدراك، القاهرة، عالم الكتب، ٢٠٠٥م.
- سعيد هارون: شرح معجم اصطلاحات الصوفية لابن عربي، القاهرة، مكتبة الآداب، ط١، ٢٠٠٧م.
- شرف الدين الراجحي: المبني للمجهول وتراكيبه ودلالته في القرآن الكريم، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩م.
- الشعراوي: تفسير الشعراوي، دار أخبار اليوم.
- طالب محمد: بناء الجملة في ديوان طرفة بن العبد، ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٨م.
- ابن عاشور: التحرير والتنوير، تونس، الدار التنوسية للنشر، ١٩٨٤م.
- عبد الجليل حسين عبيد: بناء الجملة العربية في ديوان النابغة الذبياني، ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٧م.
- محمد عبد الخالق عضيمة: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، القاهرة، دار الحديث.
- المراغي: تفسير المراغي، مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي بمصر، ط١، ١٩٤٦م.
- مجمع اللغة العربية: معجم ألفاظ القرآن الكريم، القاهرة، ١٩٨٩، ١٩٩٠م.
- ناصر باتع: بناء الجملة الخبرية في ديوان البحتري، دراسة وصفية توليدية تحويلية، دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بنها، ٢٠٠٦م.

رابعاً- الدوريات:

- أحمد خليل، ومحمد قاسم: مصطلح الفعل المبني للمجهول بين التراث النحوي ودراسات المحدثين، الجامعة المستنصرية، مجلة كلية التربية، ع (٦)، ٢٠١٦م.
- أحمد عبد القادر رفاعي: رؤية الله تعالى يوم القيامة بين الإمكان والاستحالة- دراسة للأدلة ولأقوال المذاهب في ضوء مكتشفات علم الفلك المعاصر، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات، دمنهور، ع (٣)، ج٢، ٢٠١٨م.
- طارق محمد سليمان: رؤية الله تبارك وتعالى حسب المباحث العقدية الواردة في تفسير ابن العربي المالكي ت ٥٤٣ه، مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعة بغداد، العدد (٤٤)، ج١، ٣٠ كانون الأول ٢٠١٥م.
- عمرو أحمد عُطيفي: الثقافة الشعبية في المعاجم العربية- العين ومعجم اللغة العربية المعاصرة نموذجًا، مجلة الموروث، معهد الشارقة للتراث، العدد (٦)، يونيو، ٢٠١٧م.
- محمد السيد عبد الرازق: الإعجاز البلاغي للفعل المبني للمجهول، بحوث المؤتمر الدولي الثالث (العلوم الإسلامية وقضايا الإعجاز في القرآن والسنة بين التراث والمعاصرة، في الفترة من ٤- ٦ مارس ٢٠٠٧م، كلية دار العلوم، جامعة المنيا.
- وداد حميد مهدي: الفعل المبني للمجهول في اللغة العربية (أهميته- مصطلحاته- أغراضه)، مجلة التربية والعلم، م(١٨)، ع(٢)، ٢٠١١م.

بحمد الله

الترقيم الدولي الإلكتروني
ISSN 2636 - 316X

الترقيم الدولي
ISSN 2356-9050

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١-	ملخص	١٢٤٧
٢-	Abstract	١٢٤٨
٣-	مقدمة	١٢٤٩
٤-	المبحث الأول- مداخل نظرية تمهيدية:	١٢٥٢
٥-	المطلب الأول- المبني للمفعول في عرف النحاة والدراسات اللغوية الحديثة:	١٢٥٢
٦-	المطلب الثاني- المبني للمفعول في الدرس النصي:	١٢٥٣
٧-	المطلب الثالث - المبني للمفعول في القرآن الكريم:	١٢٥٥
٨-	المطلب الرابع- مفهوم التلقي الفيزيائي.	١٢٥٥
٩-	المطلب الخامس- دلالة فعل القول في القرآن الكريم:	١٢٥٩
١٠-	المبحث الثاني : نماذج تطبيقية للفعل (قيل) لدلالة التلقي الفيزيائي في القرآن الكريم.	١٢٦١
١١-	أولًا- التلقي الفيزيائي مع مشهد اليوم الآخر (كلام الله تعالى):	١٢٦١
١٢-	ثانياً- التلقي الفيزيائي مع مشهد نوح عليه السلام (وحي الله له وللأرض والسماء):	١٢٧٧
١٣-	ثالثاً- التلقي الفيزيائي مع مشهد سليمان وملكة سبأ (السماع من محيط المكان):	١٢٨٢
١٤-	رابعاً- التلقي الفيزيائي مع مشهد بني إسرائيل (السماع من جهة أعلى):	١٢٨٤
١٥-	الخاتمة:	١٢٨٧
١٦-	مصادر الدراسة ومراجعها	١٢٨٩
١٧-	فهرس الموضوعات	١٢٩٤